

مقدمة [١٣]

Introduction

هناك ، مع الاقتصاد المعولم ، وتقنيات الاتصال الجديدة ، ضمير كوني في طور التشكل. لم يعد الطموح الكوني أمراً مجرداً ، بل حسياً لأن هدفه الأرض والحضارة الجديدة التي تُرعى دعائمها في نطاقها. إن للاقتصاد المعولم ، وهو اقتصاد تنافسي ، تبعات ؛ نتائج كثيرة لعل من أهمها أن هناك علاقات عولمية جديدة في طور التشكل بين الإنسان وبين عناصر الكون الأساسية التي هي الماء والتراب والهواء والنار ، إضافة إلى الطاقة بكل أشكالها. والحال أن الطمع في هذه العناصر الأربعة يزداد ، وتصبح في كل يوم أكثر ندرة. إن المعارف وحوارات الأفكار تقلت في آن معاً من مواطنها الأصلية ، وهي من الآن فصاعداً متاحة في جهات الكوكب الأربع بفضل الأنترنت ، والترجمات المتعددة ، والمقارنات التي لا تنتهي ، ويفضل انتقال البشر ، حتى إن التنوع يظل برأسه في كل ركن من أركان الأرض. إن الإنسان الذي يسط سجادته صلاة في مكتبة بوذية في لاسا^(١)

(١) لاسا هي العاصمة التقليدية للتيبت ، وعاصمة منطقة التبت المتمتعة بالحكم الذاتي من جمهورية الصين

الشعبية. تقع لاسا عند سفح جبل جيليل. والمدينة هي موطن لحوالي ٢٥٥,٠٠٠ نسمة. وعلى ارتفاع نحو ٣٦٥٠ متر (١١٩٧٥ قدم)، هي واحدة من أعلى المدن في العالم. لاسا تعني حرفياً "مكان الآلهة"، على الرغم من أن اللغة التيبتية القديمة والنقوش وثائق تثبت أن المكان الذي كان يسمى راسا ، وهو ما يعني "مكان العزلة"، وحتى أوائل القرن السابع. (المترجم)

Lahasa هو من الآن فصاعداً الشخص نفسه الذي يراقب على شاشة ناسا Nasa كيف يكتشف الإنسان الألي كوكب المريخ، أو ذلك الذي يفتح في برلين لوحة شجرة الساموراي للفنان المكسيكي غبريل أروزكو^(٢) Gaberiel Orozco، أو هو أيضاً الإنسان الذي يراقب حركة الأسهم في صالة سوق الأوراق المالية في شنغهاي Shanghai.

إن المنجزات الحضارية الكبرى التي سمحت بانطلاقة الفكر والفعل - سواء كان ذلك في المجال الديني أو الفلسفي أو الأدبي أو العلمي - لهي مكونات ما يمكن أن نسميه الثقافة، التي هي، شأنها شأن العناصر الأربعة، عنصر حيوي للإنسان والعالم. لقد سعينا إلى التذكير ببعض سمات حياة الأفكار المشار إليها، بتلك الحيوية الثقافية على اختلافها لنبرهن على فائدتها، بل ضرورتها في عالم معولم، يسيطر عليه اقتصاد السوق التنافسي الذي تتعالى فيه، وبشيء من العنف، أصوات كثيرة تطالب بحق الاختلاف.

ويمكن في واقع الأمر أن تتجلى بالتدرج أدلة كثيرة على ذلك في العلوم، وفي العصور التاريخية، وفي المجالات الثقافية. ويمكن لفهم الظواهر أن يتنظم حول عدد من مراكز الجذب التي تتنافس، ويخضب بعضها بعضاً في رحاب الفضاء نفسه. وفي هذا السياق استطاعت بعض أهم النصوص المقدسة للإنسانية مثل الكتاب المقدس والقرآن والباغافاد جيتا^(٣) Bhagavad Gita، وأقوال بوذا Buddha، ومحاورات كونفوشيوس Confucius، واعترافات القديس أوغسطين Saint - Augustin ... إلخ. أن تصطنع تمثيلات وتصرفات لدى الأفراد والجماعات إبان قرون، ويمكنها اليوم أن تلقى الضوء على هذه الممارسة أو تلك، وأن تعطي أو تجدد العطاء لقدرات استباقية تنبئ بالمستقبل.

(٢) فنان مكسيكي معاصر، ولد عام ١٩٦٢م. ويركز في لوحاته على موضوع التراسل بين الأشياء. (المترجم)

(٣) ترجم إلى العربية بعنوان: الباغافاد جيتا - الكتاب الهندي المقدس، الذي حققه د. شاكوئاتالا راوا شاستري، ومصدر تحليلها مع ترجمة إنجليزية عام ١٩٨٢م في بومي - الهند، ترجمه إلى العربية د. رعد عبد الجليل جواد، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ط١، ١٩٩٣م. (المترجم)

إننا اليوم نتذكر لنفكر ونعمل ؛ ذلك هو منظور هذا الكتاب الذي نرسم من خلاله إلى بيان مدى إسهام الآخرين الذين سبقونا في تكوين أفكارنا ، سواء ما كان منها حميمياً خالصاً ، أو فردياً ، أو ما كان منها جماعياً .

إن فعل القراءة الذي تشارك فيه كل الخواس - الرؤية ، والسمع ، واللمس ، والتذوق ، والإحساس ، يعني أن نفهم الحياة فهماً أفضل ، وأن نشارك فيها بحيويتها ، وطاقاتها ، ونطوريتها التدريجية ، مشاركة أفضل ، إنه يعني أيضاً أن نفهم الموت فهماً أفضل ، ونشارك في قوة البعث المرتبطة به . ويمكننا هنا أن نستوحي من عالم ذي نزعة إنسانية عاش في عصر النهضة ، إنه نيكولا ميكافيللي^(٤) Nicolas Machiavel ، عاشق معارف الماضي ، الذي اهتم بأن يؤسس لزمته الذي يعيشه فكراً سياسياً واقتصادياً قادراً على إلقاء الضوء على تحديد حدود الفعل الصائب . لكي يقرأ رجال الماضي يرتدي ميكافيللي في كل ليلة ثياب الاحتفال ، إن علاقته بالقدماء هي علاقة وثيقة : [١٤] :

عندما يماتي المساء ، أعود إلى المنزل . وألج مكثتي ، ومنذ العتبة أخلع عني الثوب اليومي الرث الذي يغطيهِ الغيار والوحل لألبس ملابس البلاط الملكي والحيري ؛ وعندما أصبح بهذه الحلة المشرفة أدخل البلاطات العتيقة لرجال العصور القديمة . وهناك يستقبلونني بكل حفاوة ، وأنا أنتشي بالغذاء الذي أفضله بامتياز ، الغذاء الذي ولدت من أجله . هنا لا مجال للخجل من التحدث معهم ، ومن سؤالهم عن مسوغات أفعالهم ، وهم ، الذين يغمروهم فضل الإنسانية ، يجيبونني . وخلال أربع ساعات من الزمن لا يتسرب الملل إلى نفسي ، أنسى كل ما يعصف بي ، وأقلع عن خشية الفقر ، بل إن الموت نفسه لم يعد يخيفني^(٥) .

(٤) نيكولا ميكافيللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧م) فيلسوف إيطالي من أسرة عريقة من أسر مدينة فلورنسا ، وقد اشتهر بكتابه "الأمير" . (المترجم)

(٥) الأعمال الكاملة ، باريس ، منشورات غاليمار ، لايبليد ، ١٩٥٢م ، ص ١٤٣٦ .

إن مما تجدر ملاحظته هو أن هذه القراءة، هذه المقاربة الثقافية التي هي أقرب إلى أن تكون استكشافاً فلسفياً وثقافياً لكل الكتب ولكل المؤلفين، تمارس مقرونة ببعض الخجل وباهتمام ينم عن الاحترام بعيداً عن سبيل المعلومات اليومية والهموم المستمرة. إذن، إنها قراءة دنيوية ومقدسة في الوقت نفسه، إن من يخاطبهم ميكافيللي منفصلون عن الماضي الذي يتمتعون إليه، إنهم ليسوا مجرد بقايا أثرية لزمن انقضى، إنهم يقبلون أن يتوجه إليهم بالسؤال شخص تسم أسئلته بداهة بأن لها منظورات خاصة به سياسياً واقتصادياً.

وإذا كانت الإنسية الأوروبية منذ عصر النهضة أولت القراءة أهمية كبيرة فإن "طلاقة" القدماء الذين يقبلون على الدوام مخالطة الأحياء لا ينبغي أن تخفي البتة الواقعة الأساسية التالية: إن الكتب قادرة على زعزعة القناعات المكتسبة، وتخطيم أكثر الاعترافات رسوخاً، والإجبار على تشكيك مرفق. وتلاحظ فيرجينيا وولف^(٦) Virginia Woolf أن فعل القراءة يعني بمعنى من المعاني أن يفتح المرء بابه لعصبة من المتمردين الذين يندفعون مهاجمين عشرين موضعاً في آن معاً^(٧).

إن ما نراهن عليه في هذا الكتاب يتمثل بالتحديد في تأكيد أن الكتب الأساسية في الثقافات العظيمة والأديان الرئيسية لديها رسالة مهمة ومؤثرة تنهيها إلينا بخصوص

(٦) إدلين فيرجينيا وولف (١٨٨٢ - ١٩٤١م) روائية إنجليزية، كاتبة مقالات، ناشرة، وكاتبة قصص قصيرة. تعد واحدة من أهم الرموز الأدبية الحديثة. إحدى رائدات مدرسة تيار الوعي التي شكلت ثورة على السرد التقليدي إبان القرن التاسع عشر، بكل ما يحمله ذلك التيار من سمات جدالية مركبة مثل التداخي الحر للأفكار، المونولوج الداخلي، المنظور التعددي، وسواها من التيمات التي تزيد العمل تركيماً، إلا أن وولف تميزت بتقنيات سردية أخرى هي: الالتفات في الضمائر، أنسة الجماد، تضفير الواقع بالخيال، واختراق الأخرى اللغوية، إضافة إلى الطول المفرط لجملتها السردية التي قد تصل إلى صفحات، ما يزيد أعمال وولف تركيماً بتألياً وصعوبة في التلقي. من مقدمة كتاب أثر على الخاطئ، ترجمة وتقديم الشاعرة المصرية فاطمة ناعوت، مراجعة وتصدير د. محمد عتاني، ط ٢ المركز القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م. (الترجمة)

(٧) رسالة لشاعر شاب، باريس، منشورات آلف ليلة وليلة، ١٩٩٨م، ص ٢٧.

Lettre à un jeune poète, Paris, Ed. Mille et Une Nuits, 1998, p. 27.

أكثر المشكلات معاصرة. إنها تسمح بطرح مسألة الحياة، وبإلقاء الضوء على المفارقات والمتناقضات، وبفهم الفوارق الدقيقة، وبفتحهم غموض الكائنات البشرية وأشكال سلوكها.

وبذلك يتضح أن حقيقة أن يكون هناك حد أدنى من ثقافة الشمول لدى كل فرد هو أمر غير طوباوي تماماً، وإن كان يوصف بأنه كذلك. وكما يقول محرر كبير في مجلة ليزيكو les Echos الاقتصادية الفرنسية، بمناسبة منتدى دافوس الأخير Davos فإن المطالبة بالحد الأدنى من الثقافة الشمولية في سياق "عالم يتحول من الغرب نحو الشرق"، باتت حاجة ماسة وحتمية في آن معاً.

لقد مضى زمن التساؤل عن تفوق هذا العرق أو ذاك، تلك الشخصية أو هذه. إن موضوع الساعة اليوم هو التفكير في مصداقية مبدأ إشاعة خطابات التسامح أو خطورته، المصداقية التي يمكن أن تبطل كل صيغ التفكير والفعل السابقة أو اللاحقة وتقود إلى الفوضى.

إن لكل إنسان الحق، وربما الواجب، في أن تكون له تفضيلاته الثقافية. لماذا لا يحب الإنسان، لكي يصنع عمله، وبعض مبادئه، دون كيشوت Don Quichotte لسرفانتس Cervantès والمحاولات Essais لمونتيني Montaigne كما يحب رواية طوطم الذئب le totem du loup للروائي الصيني جيانغ رونج Jiang Rong أو رواية بيدرو بارامو Pedro Páramo لخوان رولفو^(٨) Juan Rulfo وما ذكرناه هنا ليس إلا أمثلة استقيناها من مجال الأدب.

إننا نزعم في هذا السياق أن هناك "مفاتيح ثقافية" ممكنة من أجل فهم أكثر عدلاً للعالم، ولذواتنا في هذا العالم، ولدور الشركات فيه أيضاً. إن تلك المفاتيح الثقافية

(٨) رواي مكسيكي (١٩١٢ - ١٩٨٦م). الأب الروحي للواقعية السحرية في أدب أمريكا اللاتينية. ألوحث روايته بيدرو بارامو للتركيز بروايته "مائة عام من العزلة". وأثرت في أدب أمريكا اللاتينية على وجه العموم. تترجم الرواية إلى العربية صالح علماني، دار المأمون المحدودة للنشر، ١٩٩٩م. (الترجم)

التي لن تكون مفاتيح انغلاق ومنع مخصصة لفتح الأبواب التي [١٥] تسمح بحركة ذهاب وإياب بين الآخرين والذات، وتسمح أيضاً برؤية الأشياء عبر رؤية الآخرين، وهي مفاتيح تخضع على تغيير البيئة واللغة. إن الفهم الصحيح والترجمة أمران متداخلان. وإن التنوع في عالم معولم هو مرادف للحرية.

يتكون الباب الأول من الكتاب، الباب المعنون "العولمة المتنوعة" من ثلاثة فصول تبصر في التشابك بين العولمة والتنوع. يشكك الفصل الأول في التعارض التقليدي بين الطبيعة والثقافة لإلقاء الضوء على تحديات إدارة عناصر الكون الأربعة والتنمية المستدامة؛ ويظهر الفصل الثاني كيف أن طواف الأرض قاد عبر التجارة إلى التشابك الصعب والضروري، تشابك يشكل في غالب الأحيان مفارقة بين العولمة والتنوع. ويتفحص الفصل الثالث بعض مظاهر الأخلاقيات الاقتصادية للثقافات الكبرى، والديانات الكبرى لكي نطرح طرْحاً أفضل العلاقة الغريبة بين السوق والديمقراطية.

ويحمل الباب الثاني عنوان "التحديات النظرية والعملية في الوقت الحاضر"، ويتكون من تسعة فصول "موجزة"، مخصصة لبعض الموضوعات المقلقة التي تخص المعاصرة: الفوضى والتمييز بوصفه فضلاً ضرورياً بين السلطات والمصالح، الاستدامة، الخطر، الفقر، الفساد وضحاياها، مظاهر الغموض في توحيد صياغة حقوق الشعوب، ومفهوم الحرب العادلة، والتطابق، ومسألة توحيد صياغة القوانين، ومسألة القوانين الجزائية في فرنسا. لقد عاجلنا بعمق هذه الموضوعات من خلال الأساطير والفلسفة، وألقينا الضوء على تحدياتها عبر إشارات إلى الأحداث قريبة العهد.

أما الباب الثالث المعنون "منظورات" فإنه يتكون من فصلين مخصصين لتكوين آفاق أساسية. الأول مخصص لذلك الإحساس الأساسي لدى الإنسان، إنه الخوف، وهو إحساس يصل اليوم إلى حد الذروة لأسباب تاريخية وظرفية في إطار العولمة. وينصب الفصل الثاني على أهمية الإبداعية الفنية، وعلى تحدياتها بوصفها مرافقة للإنسان الذي يعيش في عالم معولم، وهو مجبر في الوقت نفسه على تحمل مسؤولية التنوع.

لقد رمينا من هذا الكتاب إلى عرض أدوات تحليل وعناصر تفكيره في الوقت نفسه بسيطة وأصلية، لا يمكن أن يستغني عنها كل أولئك الذين يودون التمهيد لمعالجة مسائل إستراتيجية ومسائل مبادلات، ويرغبون في فهم التبعات التي تتركها المعتقدات والتمثيلات في الحقل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والأخلاقي. لا يمكن للإدارة اليوم أن تُعرض عن المقاربة متعددة الثقافات، لأنها المقاربة الوحيدة القادرة على إلقاء الضوء بوضوح وإحكام على القرار والفعل في عالم معولم.